من ذكريات جبل رضوى

[الواقع فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة إلى الجنوب ، فى رحلة جلالتى الملكين المعظمين فاروق وعبد العزيز . وهذه القصيدة وصف لذكريات مباهج البادية فى صحراء تلك الرحلة الشائقة على شاطىء البحر الأحمر .]

طوينا إليك البيد حين نسير ... وفى الصدر منا لوعة وزفير
نسائل عن رضوى ، وما أنت قصدنا ... ولكن لنا بالسفح منك أمور
تشامخت فى الأعنان تبغى سماءها ... كأن لم يكن بالمأزمين « ثبير » (١)
كأنك فى تلك المنازل مفرد ... وما لك فى ذاك الشموخ نظير
ونحن نعد السير نطوى فيافياً ... وبيداً ، ويحوينا ضحى وبكور
فطورا بسيف البحر مالت ركابنا ... وطورا بأحقاف الرمال تغور
نسير خفافاً ننهب البيد تارة ... وطورا على وحش الفلاة نغير
فكم ربرب رعناه والسرب آمنٌ ... وكم جؤذر جئناه وهو يسير
مشينا إلى أسرابها وهى رُتَّعٌ ... نعاجلها بالقنص حين تحور
تروح الظباء الغر عنا تهاديا ... بها مَيَل فى عطفها وغرور
نراوحها ذات اليمين ، فإن أبت ... قراراً فمن ذات اليسار ندور
فما هى إلا لحظة ثم لحظة ... وأخرى ، وإذ بالسرب وهو أسير
يَقَرُّ به الصياد عيناً وغبطةً ... ويطعم منه جائع وفقير

لك الويل يا تلك الظباء ، فإنها ... شبيهاتها فى المحصنات بدور
ولا فرق إلا أن تلك كِناسها ... فلاة ، وتلكم فى المدائن دور

(١) ثبير : جبل مشهور فى منى .

وفى النفس ما فى النفس من صبواتها ... ومن عبث الأهواء حين تجور
وما العيش إلا صبوة أو علالة ... وما هو إلا نعمة وحبور

ولما بدا المخيام للركب أشرقت ... مباهج أنس جمة وسرور
تراءى كأسراب الحمائم جُثَّماً ... طيور ، تباريها هناك طيور
تناثر فيه الكهرباء كأنها ... نظيم ، بلبات الحسان ، نثير
ففى الصبح وضاح الأسرَّة مشرق ... وفى الليل وهاج الأسرَّة نور

فياسفح رضوى جادك المزن والحيا ... وحياك منهلُّ السحاب غزير
ويا سفح رضوى كنت بالأمس مغفلا ... وما لك فى سمع الزمان عبور
وكنت وما فى الناس عنك مسائل ... وذكرك دون الأصغرين يسير
ولكنها الأيام فيما يرونها ... تداور أحداث الورى وتدور
فهاك يُثار اليوم ذكرك خافقاً ... وكلٌّ إلى ما فى رُباك يشير
تطلَّعت الأنظار نحوك فجأة ... وأصغى إلى نجوى رباك ضمير
أضفت إلى التاريخ سِفراً مجدداً ... له فى سجل الخالدين سطور
فيا لك من وادٍ فسيح مُنَضَّر ... به روضة فياحة وغدير
ويالك من روض به السفح مونقٌ ... بهيج بأعلى التلعتين نضير
فإن أنس لا أنسى بسيفك شاطئاً ... يقوم عليه سبسبٌ وصخور
جواهره فى منظر العين تُشْتهَى ... لتزدان منها أذرعٌ وصدور
وأصدافه من خالص الحسن لؤلؤ ... تمنته من غيد الملاح نحور
جلسنا إلى نجواك نصغى لهمسها ... وما هى إلا ضفة وخرير
جلسنا وقرص الشمس يبدو اصفراره ... يجر إليك الذيل وهو كسير
فما هو إلا أن حوته لفائف ... من الموج ، فانثالت عليه بحور
وما هو إلا أن أطل مكانه ... من الأفق بدر فى السماء منير
فيا من رأى بحراً وبدراً كلاهما ... مع البيد فى ليل الربيع سمير

[مكة] فؤاد شاكر